



اجتمع الرئيس الروسي «فلاديمير بوتين» والرئيس التركي «رجب طيب أردوغان» يوم الثلاثاء. ليس من الواضح ما خرج به الاجتماع على وجه التحديد، ولكن من الواضح أن أموراً عدّة صارت على المحك. روسيا هي قوة تعاني من الضعف، وبعد الاقتصاد قضيتها الرئيسية في الوقت الراهن، كما أن مسألة أوكرانيا لا تزال في صميم اهتماماتها الاستراتيجية. تركيا هي قوة صاعدة تدير أزمتها الداخلية الراهنة بشكل فعال. كلّا هما ترى نفسها في مواجهة مع قوة كبيرة هي الولايات المتحدة. وهي قوة تبدو غير حاسمة في كثير من الأحيان في استخدام قوتها وتصير أحياناً بطريقة عشوائية وغير متوقعة. بالنسبة إلى روسيا وتركيا، فإن كلاًّاهما تعي أن خطوتها التالية سوف يكون لها عواقب وجودية. وبالنسبة للولايات المتحدة، فإنه لا شيء يحدث في كلاًّا البلدين يرقى إلى مستوى كونه حدثاً وجودياً. بعد المسافة وفارق القوة يعززان الولايات المتحدة بشكل كبير عن مغبة سوء التقدير.

لذا فإن روسيا وتركيا تعايران تحركاتهما بأكبر قدر ممكن من الدقة. على المدى القصير، فإن كلاًّا البلدين لديهما مصالح مشتركة. تريد كلّاً منهما الحفاظ على مساحة المناورة الخاصة بها من خلال تشتت انتباه الولايات المتحدة لتفادي مواجهتها بشكل مباشر. تراقب كلاًّا الدولتين بحذر مساعي الاتحاد الأوروبي نحو إعادة تعريف نفسه ودوره. عدم اليقين في أوروبا يعطي كلاًّا البلدين رئة للتنفس ولكنه في ذات الوقت يولد قدرًا كبيراً من عدم الارتياح. كلاًّا البلدين لا يمكنها التنبؤ بما سيحدث للكتل الأوروبي بعد سنوات من الآن. يمكن للفوضى أن تتكثّف، كما يمكن أن تنتهي الأمر بنشوء دولة قوية أو تكتل قوي. في النهاية، أيًّا كان ما سيحدث في أوروبا فهو مهم بالنسبة إلى تركيا وروسيا.

المصالح المشتركة:

بشكل ظاهري، يبدو أن كلاًّا من تركيا وروسيا لديهما مصالح مشتركة. في الواقع، هناك دلائل على أن هذه المصالح المشتركة تؤتي ثمارها. منذ سقوط الاتحاد السوفياتي، حافظت أرمينيا على علاقة تبعية وثيقة مع روسيا وهو ما سمح لها بهزيمة أذربيجان في الحرب التي وقعت في بداية التسعينيات والاستيلاء على منطقة كانت واقعة تحت سيادة أذربيجان قبل الحرب. تسمى المنطقة موضع النزاع باسم ناغورنو كاراباخ، والتي ظلت منذ ذلك الحين نقطة اشتغال متعددة بين البلدين. قتل قرابة 40 ألف شخص خلال هذه الحرب، وفر عدد أكبر من سكان أذربيجان من الإقليم، ولا يزال الإقليم يشهد اشتباكات دورية تسفر عن وقوع إصابات.

كانت السياسة الخارجية لأذربيجان معقدة. مع كونها محصورة بين إيران وروسيا، فقد كانت حريصة باستمرار على انتهاج سياسة تضمن استقلالها دون أن تمثل تهديداً لأي من البلدين. تريد أذربيجان علاقة وثيقة مع الولايات المتحدة، ولكن الولايات المتحدة تواصل دفعها بعيداً بسبب قضايا حقوق الإنسان، وأيضاً لأبعاد استراتيجية حيث لا ترغب الولايات المتحدة أن تضع نفسها في موقع بين روسيا وإيران وتركيا. تفتقر أذربيجان إلى مركز ثقل كبير لذا فإنها تقوم بتحفيز اتجاه ثقلها باستمرار. ولكن قضية ناغورنو كاراباخ تظل قضية أساسية بالنسبة إلى أذربيجان.

علاقة أذربيجان مع تركيا قوية نسبياً، حيث تمثل بالنسبة لها نقطة عبور للطاقة. الأهم من ذلك، أن أذربيجان بدأت تعمل ضد

أنصار كولن منذ عدة سنوات. ترتبط البلدان بعلاقات عرقية ثقافية منذ سنوات، كما تواجه كلاهما عدوا مشتركا هو أرمينيا.

بالنسبة لتركيا، فإن المسألة الأرمينية ربما صارت هامشية، ولكن تركيا لا تزال تشعر بالقلق تجاه الأرمنيين بالنظر إلى أنهم يسهمون في تشكيل سياسة الولايات المتحدة تجاه تركيا كما تسببوا في جلب القوات الروسية جنوب القوقاز.

القضية الرئيسية هنا هي مسألة ما يعرف بالإبادة الجماعية للأرمن. بعد الحرب العالمية الأولى، عندما كانت الإمبراطورية العثمانية تنهار، كانت هناك فوضى عارمة في المنطقة وتسبب الأتراك في مقتل عدد كبير من الأرمن. في منطقة تتمتع بذاكرة طويلة وقدرة محدودة على النسيان، لا يزال الأرمن يتذكرون هذه الأوقات بمرارة في الوقت الذي يصر فيه الأتراك على نفي وقوع إبادة جماعية. يمثل الأرمن أعدادا كبيرة من المهاجرين المقيمين في الولايات المتحدة وقد نجحوا في صناعة لوبى فعال يلعب دورا في تشكيل سياسة الولايات المتحدة تجاه تركيا ولكنهم لم ينجحوا في توجيهها بشكل كامل. ويبدو أن هذا هو ما دفع الأرمن للتوجه إلى الروس.

منذ الحرب العالمية الثانية، لعبت روسيا دور الضامن للأمن القومي في أرمينيا، وكان هذا أحد أبرز الملفات التي سبب الانقسام بين روسيا وتركيا.

كان الوضع يبدو على وشك التحول حتى قبل محاولة الانقلاب التي وقعت في يوليو/تموز. ومنذ ذلك الحين، فإن هناك العديد من الأدلة على أن روسيا تبدو على وشك تحويل سياستها في أرمينيا. وقد اجتمع «بوتين» مع رؤساء أذربيجان وأرمينيا وبالطبع تركيا. هناك حالة من عدم الاستقرار في أرمينيا مع خروج القوى المعادية لروسيا إلى الشارع. لم تكن المظاهرات ضخمة جدا ولكن حقيقة أنها كانت مناوئة لروسيا لم تخل من دلالة. ويبدو من المرجح أن روسيا سوف تفرض اتفاقا في ناغورنو كاراباخ وتقلص من دعمها لأرمينيا. وهذا سيجعل الأذربيجانيين والأتراك سعداء وممتين تجاه روسيا.

تشعر روسيا بالقلق تجاه تمتين الولايات المتحدة لعلاقاتها مع رومانيا وبولندا. كما تتحدث عن خطة «بين البحار» الجديدة لاحتواء روسيا والتي تمتد من دول البلطيق إلى تركيا وربما أذربيجان. هذا قد يضع روسيا في موقف سيء. عملت تركيا مع بولندا ورومانيا في القضايا الدفاعية لفترة من الوقت خاصة في أعقاب إسقاط الطائرة الروسية. من الواضح أن روسيا لا تريده أن تشهد انضمام تركيا إلى تحالف آخر مدعوم أمريكا. وبدأ أن تركيا تشعر بعدم الارتياح إزاء تبعيتها للولايات المتحدة منذ رفضها المشاركة في حرب العراق عام 2003. مع وجود روسيا معادية، فإن تركيا لن يكون لديها أي خيار سوى التعاون مع الأمريكيين. الآن، فإن الأتراك يملكون الخيار. عملية المبادلة التي تهدف إلى بناء الثقة ربما تشمل قيام روسيا بفرض مفاوضات برعايتها على أرمينيا، مقابل قيام تركيا بالابتعاد عن بولندا ورومانيا. هذا من شأنه أن يعزز موقف تركيا في منطقة القوقاز وموقف روسيا في الغرب.

هل نشهد علاقات استراتيجية؟

قد تكون هذه مجرد مناورة افتتاحية، لكن الأساس طويل الأمد للعلاقات لا يزال محل شك كبير. لدى كلا البلدين مشاكل داخلية كبيرة. لا يمكن للكلا البلدين تجاهل الولايات المتحدة أو الوقوف أمامها. والأهم من ذلك، هناك التوتر الجيوسياسي الواقع في قلب العلاقات الروسية التركية. لا يثق البلدان ببعضهما البعض. روسيا لا يمكنها أن تسمح لتركيا أن تصير القوة المهيمنة في البحر الأسود، كما أن تركيا لا يمكن أن تسمح لروسيا بالسيطرة على مضيق البوسفور. هذه الخطوات المبدئية يمكن أن تمثل أساسا لبدء العلاقة، ولكن استمرارها يتطلب تعاون البلدين حول مسألة النفوذ في بلدان البحر الأسود وخارجها، مثل مولدوفا، رومانيا، صربيا وأذربيجان. كما سيكون عليهما أيضا أن يعملا معا في آسيا الوسطى.

على المدى القصير، سوف تنجح هذه المصالحة. ولكن احتمال بقاء تركيا وروسيا دون اشتباك على المدى البعيد يبقى في حد الأدنى. بمجرد وقوع هذا الاشتباك فإن تركيا سوف تطلب مساعدة الولايات المتحدة، في حين سوف ترغب روسيا في بقاء الولايات المتحدة بعيدا.

التحالفات الناجمة عن الأحداث قصيرة الأجل مثل الانقلاب التركي يمكن أن تستمر لعقود فقط إذا توفرت الركائز الأساسية لهذه العلاقات. هذه الركائز لم تكن أبدا موجودة في حالة روسيا وتركيا، لذا فإن الأمور مرتبطة فقط بالأحداث. أرمينيا لم تعد بتلك الأهمية بالنسبة إلى روسيا، كما أن زيادة القوة الروسية سوف تشعر الأتراك بعدم الارتياح. يمكن لهذا التحالف أن يستمر لسنوات، ولكن السنوات ليست مدة كبيرة في عمر الجغرافيا السياسية. الأمر خطير وجاد، ولكنه لن يكون محدودا لشكل عصرنا.

ترجمة وتحرير فتحي التريكي – الخليج الجديد

جيوبوليتيكال فيوتشرز

المصادر: